موقع الشيخ التركماني
https://www.turkmani.com

مقال: ألفية ابن حزم الأندلسي

المصدر: مجلة إبداع

بقلم: حسن طلب

رقم العدد: 9

تاريخ الإصدار: 1 سبتمبر 1994

إعداد: موقع الشيخ عبد الحق التركماني

https://www.turkmani.com

حسن طلب

يعتذر رئيس التحرير عن عدم كتابة افتتاحية هذا العدد، لارتباطه ببعض الندوات الفكرية والأمسيات الشعرية خارج الوطن، في لندن، ودمشق وأصيلة

ألفية ابن حزم الأندلسى

ARCHIVE

لقد أوشك عامنا هذا (١٩٩٤) أن ينصرم، دون أن ينتبه أحد منّا إلى أن ألف عام قد مرت على ميلاد مفكر موسوعى كبير وعالم فذ أصيل، هو «ابن حزم الأندلسى» المولود عام ٩٩٤ ميلادية، والذى شهد أخلافه له بهذا الاعتراف الدال: «كل العلماء عيال على ابن حزم».

ويبدو أن الصدفة وحدها هى التى تجعلنا نتذكر مفكرين وكتابا على امتداد تراثنا القريب والبعيد، فنحتفل بهم، فى حين ننسى آخرين قد لا يقلون عنهم قيمة وتأثيرا.

لقد احتفلنا على مدى العقدين الأخيرين بذكرى ألف عام على وفاة الفارابى (توفى عام ٩٥٠ ميلادية)، ثم بذكرى ثمانى مائة عام على وفاة السهروردى وابن عربى، وصدرت كتب تحتوى على دراسات متخصصة حول آثار هؤلاء المفكرين الكبار، وقد احتفلت مجلة (**أدب ونقد**) منذ شهرين بمرور ألف عام هجرى على وفاة أبى حيان التوحيدى (توفى عام ٤١٤ هجرية)، وليس يصح فى هذا السياق أن نمر على ألفية ابن حزم الأندلسى مرور الكرام.

فألفية ابن حزم لاتقل أهمية عن ذكرى هؤلاء، بل لعلها - من بعض الوجوه - تبدو أجدر بالالتفات إليها، وأحق باتخاذها فرصة طيبة للحوار مع أفكار هذا العالم الكبير، الذى قد لا يعرف عنه الكثيرون إلا ماورد فى كتابه الشهير المحبب إلى النفوس (**طوق الحمامة**)؛ بما احتواه من تحليل بديع ممتع لعاطفة الحب

ابن حزم

غير أن (طوق الحمامة) لا يمثل إلا جانبا واحدا من تراث عريض متنوع تركه لنا ابن حزم. فمن الفقه إلى علم الكلام، ومن تاريخ الأديان إلى الأنساب وعلم الخَبَر (التاريخ)، ومن المنطق والفلسفة إلى الشعر والأخلاق، بحيث لانكاد نجد مجالا معروفا في ثقافة ذلك العصر إلا وقد كان لابن حزم فيه إسهام متميز.

ويبدو أننا قد اعتدنا الاحتفال بذكرى الوفاة، وكأن الاحتفال قد اقترن عندنا بالتأبين وذكر محاسن الموتى، وهذا بالضبط هو ما فعلناه مع الفارابى وابن عربى والسهروردى والتوحيدى، فهل ننتظر عام ٢٠٦٦ ميلادية حتى نحتفل بذكرى مرور ألف عام على وفاة ابن حزم؟!

إن العالم المتحضر يحتفل الآن بمرور ثلاث مائة عام على ميلاد **فولتير**. فالاحتفال بذكرى الميلاد فرح بالحياة، وتذكير ببهجتها، وتزكية لعالم الأحياء مقابل عالم الموتى؛ فما أحرانا الآن بأن نلتفت إلى إحياء ذكرى ألف عام على ميلاد ابن حزم، بدلا من أن ننتظر ذكرى ألف عام على وفاته.

وما أحرانا أيضا بأن نتخلص من ازدواجيتنا. فنحن تارة نحسب احتفالاتنا وفقا للتقويم الميلادى، كما فعلنا مع ألفية الفارابى؛ وأحيانا أخرى بالتقويم الهجرى كما فعلنا مع ابن عربى والسهروردى والتوحيدى؛ فى حين لم نتعود أن نحيى ذكرى المحدثين (**الطهطاوى - على مبارك - البارودى**.... الخ) إلا وفقا للتقويم الميلادى وحده.

وإذا كان التقويم الهجرى يربطنا بالوقائع الدينية المقدسة؛ فلتكن هذه هى وظيفته فقط لكى يبقى التقويم الميلادى سجلا لحياتنا البشرية بما فيها من أحداث وأنشطة ووقائع، حتى لا يكون للعالم كله تقويم يتعامل به الجميع، ولنا وحدنا تقويم منفصل، وحتى لا نجد من يحتفل اليوم بذكرى مفكر كبير وفقا للتقويم الميلادى، لكى يعود بعد عقدين أو ثلاثة من يحتفل بها من جديد وفقا للتقويم الهجرى.وما التقويم الميلادى فى نهاية الأمر إلا صورة معدلة من تقويمنا الشمسى القديم، الذى كان المصريون الفراعنة أول من توصل إليه.

على أن ما نقصده بالاحتفال بألفية ميلاد ابن حزم، لا يقتصر فقط على التحية ومجرد التذكرة؛ فما أحوجنا اليوم إلى أن ننظر إلى المفكرين الكبار فى تراثنا نظرة نقدية فاحصة، نرى ما أنجزوه فى ضوء ما نحتاج إليه الآن، ونزن ما تركوه منذ قرون خلت، بميزان ما يحيط بنا الآن فى أخريات قرننا العشرين، مع حساب شروط اللحظة التاريخية وقوانينها.

نحن فى حاجة مثلا إلى أن نمتحن (علم الظاهر) الذى أخذ به ابن حزم فى التعامل مع النص الدينى، بحيث أدى به الأمر إلى الوقوف ضد التأويل بكافة صوره، والتعليل بكل أشكاله، اكتفاء بالمعنى الحرفى المباشر.

ونحن فى حاجة أيضا إلى امتحان موقف ابن حـزم السلبى من القياس والرأى والاستحسان، لصالح التمسك بحرفية النص الدينى، إلى آخر هذه الأفكار التى اكتسب بها ابن حزم عداوة المعتزلة وأهل السنة جميعا.

إن الأخذ بظاهر النصوص مازال فاعلا فى حياتنا المعاصرة، فهو الشعار المعلن لكافة الأصوليات الإسلامية الآن. ولعل فى مناقشة ظاهرية ابن حزم ما يعيننا - بالتأكيد - على كشف الفروق الجوهرية بين تجليات الفكرة الواحدة من عصر إلى آخر.

لقد كان المذهب الظاهرى فى الفقه معروفا قبل ابن حزم، إذ سبقه إليه فى المشرق داود الظاهرى (توفى عام ٨٨٣ ميلادية)، غير أن ابن حـزم هو الذى نشر المذهب فى الأندلس وبلاد المغرب التى كانت معقل المالكية، ووصل به إلى تمامه.

وإذا كـان ابن حـزم قد وقف ضد التأويل والتعليل وسائر أنواع النشاط العقلى الإيجابى، لصالح التقيد بحرفية النص، فإننا لا يجب أن ننسى أنه وقف أيضا ضد التقليد بجميع أنواعه، حتى لو كان تقليدا للصحابة.

أما الدروس التى يمكن أن نستخلصها من سيرة ابن حزم، فهى كثيرة، وهى أيضا بالغة الأهمية فى تصوير القدوة المثلى للمفكرين والكتاب من أبناء هذا الزمان.

فقد كان ابن حزم وزيرا وابن وزير، ولكن المنصب - على رفعته - لم يكن ليصرفه عن العلم والبحث، فآثر فى النهاية حياة الدراسة على حياة الرئاسة، ليترك لنا ثروة من المؤلفات لم يكن ليتركها لو أنه ظل وزيرا.

وكان ابن حزم يعيش فى عصر ساد فيه الجهلاء وغلب الأدعياء، فلم ينل ذلك من إيمانه بأفكاره ولامن ثقته بأن «الحق لايصير حقا بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلا بقلة منتحليه» كما عبر أبو حيان التوحيدى.

بل إننا نجد ابن حزم قد شكر لأهل الجهل أنهم استنفروا همته وشحذوا عزيمته، كما يبدو من عبارته الدالة: (انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهى أنه توقد طبعى، واحتدم خاطرى، وحمى فكرى، وتهيج نشاطى، فكان ذلك سببا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكنى، واقتداحهم كامنى، ما انبعثت تلك التواليف».

ومن مآثر ابن حزم التى لا ينبغى أن نغض عنها البصر، أنه كان شديدا فى الحق فلا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يرضى فيه باللين والسياسة، حتى لقد جمع المؤرخون فى قرن بين لسانه وسيف الحجاج بن يوسف.

تحية لذكرى ذلك المفكر الصلد الأصيل، الذى ظل مخلصا لأفكاره فى وجه سواد الفقهاء والعلماء من (المالكية)، وبقى صامدا لا يلين ولا يهادن فى مواجهة الكثرة الغالبة، حتى لم يجدوا سبيلا لمواجهته غير إحراق كتبه ولكن حتى هذا أيضا لم يكن ليجدى فى إيقاف مفكر جبار من نوع ابن حزم، ولم يكن ليثنيه عما هداه إليه عقله.

وإذا كانوا قد تمكنوا من كتبه فأحرقوها، فإنهم ماكانوا ليجدوا سبيلا إلى ما فى صدره، على نحو ما قال هو نفسه فى شعر له قاله بعد إحراق كتبه:

فإن يحرقوا القرطاس، لا يحرقوا الذى

تضمنه القرطاس، بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبى

وينزل إن أنزل، ويدفن فى قبرى

وإنا لنرجو أن تكون لنا وقفه أخرى طويلة مع ابن حزم، نحاوره، ونتعلم منه، ونتأمل تراثه، ونمتحن أفكاره، فهذا هو ما يجب أن يكون عليه الاحتفال بذكرى المفكرين الكبار.